الباب الخامس

المرأة شجاعة، بطلة، مضحية

الفصل الأول

في ظلال البطولة والتضحيات

في القرآن الكريم آيات كثيرة تحض علىٰ الجهاد ، وعلىٰ الإنفاق ، وعلىٰ الإقدام ، وعلىٰ ملاقاة العدو والثبات في وجهه ، لكن هذا الحضّ لم يأت للذكور فقط دون الإناث ، إنما جاء الخطاب للمؤمنين عامةً ، ليدل الإنسان العاقل علىٰ أن الإناث والرجال في هذا الأمر سواء ، لكن كلاً منهم مكلفٌ حسب طاقته التي أودعها الله تعالىٰ فيه ، ومن ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[التوبة : ٣٨ـ٤١]

ولندقق النظر في هذه الكلمات ﴿انفروا﴾ ﴿اثاقلتم﴾ ﴿أرضيتم﴾ ﴿إلا

تنفروا﴾ ﴿يعذبكم﴾ ﴿ويستبدل﴾ ﴿إلا تنصروه﴾ ﴿انفروا﴾ ﴿جاهدوا﴾ ﴿خير لكم﴾ إنها بصفة الجمع ـ للذكور والإناث ـ حيث صدّر الآيات بالخطاب العام وهو قوله تعالىٰ : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ .

أي جميع المؤمنين : شيباً وشباناً ، ذكوراً وإناثاً ، لا عذر لأحد في ذلك .

ومنها قوله تعالىٰ في ختام سور الأنفال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [الأنفال : ٧٢ـ٧٥] .

ومنها قوله تعالىٰ :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

ومنها قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦] .

وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم ، وجميع ما فيها من خطاب أو وصف أو أمر أو نهي إنما جاء بصيغة العموم ، ولم يختص بالذكور أبداً .

أما كتب الأحاديث الشريفة ، ففيها الكثير عن جهاد النساء واشتراكهن بالحرب ، سواءً كان الاشتراك بحمل السلاح ، أو مداواة الجرحىٰ ، أو

نقل الماء والأمتعة ، أو إثارة حماس الرجال وتشجيعهم لينقضوا علىٰ العدو . . . من ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سُليم ونسوة من الأنصار معه ، فيسقين الماء ، ويداوين الجرحىٰ[1] .

ومن ذلك ما روته الرُّبيع بنت معوِّذ رضي الله عنها قالت : لقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ لنسقي القوم ونخدمهم ، ونردّ القتلىٰ والجرحىٰ إلىٰ المدينة[2] .

ومن ذلك ما روته أم عطية رضي الله عنها قالت : غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ، أخلفهم في رحالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوي الجرحىٰ ، وأقوم علىٰ المرضىٰ[3] .

وكتب نجدة بن عامر الحروري إلىٰ عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ يسأله عن خمس خصال ـ وكان أولها ـ : هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء ؟ وهل كان يضرب لهن بسهم ؟

فأجابه ابن عباس بقوله : لقد كان يغزو بهن ، فيداوين الجرحىٰ ، ويُحْذَيْنَ[4] من الغنيمة ، ولم يضرب لهن بسهم[5] .

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٥٧٥) في السير ، باب ما جاء في خروج النساء في الحرب ، وأبو داود رقم (٢٥٣١) في الجهاد ، باب في النساء يغزون ، وأخرجه مسلم رقم (١٨١٠) في الجهاد ، باب غزوة النساء مع الرجال .

(٢) رواه البخاري (٦/ ٦٠) في الجهاد ، باب مداواة النساء الجرحىٰ في الغزو ، وباب رد النساء الجرحىٰ والقتلىٰ ، وفي الطب ، باب هل يداوي الرجل المرأة والمرأة الرجل .

(٣) رواه الإمام مسلم رقم (١٨١٢) في الجهاد ، باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم .

(٤) أي يعطين منها .

(٥) رواه مسلم رقم (١٨١٢) في الجهاد ، والترمذي رقم (١٥٥٦) في السير ، باب من=

وأما كتب السيرة والتراجم ففيها أمثلة كثيرة عن اشتراك النساء في الحرب ، من ذلك ما أورده الإمام ابن الجوزي :

حضرت (أم أيمن) أُحداً ، وكانت تسقي الماء ، وتداوي الجرحىٰ ، وشهدت كذلك خيبر .

وكانت (أم سُلَيط الأنصارية) تزفر القِرب للمسلمين يوم أحد .

ويوم حنين ، جاء أبو طلحة يضحك إلىٰ رسول الله ﷺ من (أم سُلَيْم) فقال : يا رسول الله ، ألم تر إلىٰ أم سُليم معها خنجر ؟!

فقال لها رسول الله ﷺ : « ما تصنعين به يا أم سليم ؟ » .

قالت : أردت إن دنا أحد منهم منّي طعنتُه!!

وفي رواية أخرىٰ : اتخذته ، إن دنا مني أحد من المشركين بَقَرتُ بطنه! فجعل رسول الله ﷺ يضحك .

وشهدت (أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية) رضي الله عنها أُحداً والحديبية وخيبر وحُنيناً وعُمرة القضاء ويوم اليمامة .

وروىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما التفتُّ يوم أُحدٍ يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني » .

وقال الواقدي : قاتلت يوم أُحد وجرحت اثنتي عشرة جراحة ، وداوت جُرحاً في عنقها سنة ، ثم نادىٰ منادي رسول الله ﷺ إلىٰ حمراء الأسد ، فشدّت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم .

وخرجت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه في الردّة ، فباشرت الحرب

= يعطي الفيء ، وأبو داود رقم (٢٧٢٧) و(٢٧٢٨) في الجهاد ، باب في المرأة والعبد يحذيان من الغنيمة .

وللتوسع في ذلك يراجع كتاب : جامع الأصول لابن الأثير : ٢/ ٦١٥ .

بنفسها حتىٰ قتل الله مسيلمة ، ورجعت وبها عشر جراحات من طعنة وضربة[1] !!

وأما الإمام ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فقد أورد الكثير من ذلك ، نأخذ منها :

قالت (ليلىٰ الغفارية) : كنت أغزو مع النبي ﷺ فأُداوي الجرحىٰ ، وأقوم علىٰ المرضىٰ .

وجاء في ترجمة (صفية بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ) : كان رسول الله ﷺ إذا خرج لقتال عدوّه رفع نساءه في أطم[2] حسان ، لأنه كان من أحصن الآطام ، فتخلّف حسان في الخندق ، فجاء يهوديّ فلصق بالأطم ليستمع .

فقالت صفية لحسان : انزل إليه ، فاقتله .

فكأنه هاب ذلك ، فأخذت عموداً ، فنزلت إليه حتىٰ فتحت الباب قليلاً قليلاً ، فحملت إليه فضربته بالعمود فقتلته !

وجاء يوم أحد ، وقد انهزم الناس ، وبيدها رمح تضرب في وجوههم ، فقال النبي ﷺ : « يا زبير المرأة » .

* وجاء في ترجمة (أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث) ، ويُقال لها : أم ورقة بنت نوفل ـ رضي الله عنها ـ : كانت تسمىٰ الشهيدة ، وكانت قد قرأت القرآن .

قالت : يا رسول الله ، لو أذنت لي ، فغزوت معكم ، فمرَّضتُ مريضكم ، وداويت جريحكم ، فلعلّ الله أن يرزقني الشهادة .

---

(١) يراجع الجزء الثاني من كتابه صفوة الصفوة .

(٢) أي : هو الحصن المبني بالحجارة [القاموس المحيط : ١٣٩١] .

قال : « يا أم ورقة ، اقعدي في بيتك ، فإن الله سيهدي إليك شهادة في بيتك » .

* وذكر الواقدي :

أن(نسيبة بنت كعب) لما بلغها قتل ابنها حبيب بن زيد علىٰ يد مسيلمة عاهدت الله أن تموت دون مسيلمة أو تقتله ، فشهدت اليمامة مع خالد بن الوليد ومعها ابنها عبد الله ، فقتل مسيلمة ، وقطعت يدها في الحرب!

وذكر ابن هشام في زيادته من طريق أم سعيد بنت سعد بن الربيع قالت :

دخلتُ علىٰ أم عمرة ، فقلت : يا خالة ، أخبريني .

فقالت : خرجتُ ـ يوم أحد ـ ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهينا إلىٰ رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول الله ﷺ ، فكنت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله ﷺ بسيف ، وأرمي بالقوس حتىٰ خلصت الجراح إليَّ .

قالت أم سعيد بنت سعد بن الربيع : فرأيت علىٰ عاتقها جُرحاً أجوف له غور ، فقلتُ : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئة!!

* وقالَ رسول الله ﷺ في بيت (أم حرام بنت ملحان) فاستيقظ ، وهو يضحك ، وقال : « عُرضت عليّ أناس من أمتي يركبون ظهور البحر الأخضر[1] كالملوك علىٰ الأسرّة » .

قالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم .

---

(١) وهو اليوم البحر الأبيض المتوسط .

ثم نام ، فاستيقظ وهو يضحك ، فقلت : يا رسول الله ، ما يضحكك ؟

فقال : « عُرض عليّ أناس من أمتي يركبون ظهور البحر الأخضر كالملوك علىٰ الأسرّة » .

قلتُ : يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلني منهم .

قال : « أنت من الأولين » .

قال : فتزوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، فأخرجها معه ، فلما جاز البحر ركبت دابة ، فصرعتها ، فقتلتها .

قال ابن الأثير ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص ، فدفنت فيها .

وكان أمير ذلك الجيش معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه في سنة سبع وعشرين .

* وجاء في ترجمة (أم حكيم بنت الحارث زوج عكرمة بن أبي جهل) :

أنها خرجت مع زوجها إلىٰ غزو الروم ، فاستشهد ، فتزوجها خالد بن سعيد بن العاص ، فلما كانت وقعة مرج الصُفّر أراد خالد أن يدخل بها .

فقالت : لو تأخرت حتىٰ يهزم الله هذه الجموع .

فقال : إن نفسي تحدثني أني أقتل .

قالت : فدونك .

فأعرس بها عند القنطرة ، فعُرفت بها بعد ذلك ، فقيل لها : قنطرة أم حكيم ، ثم أصبح فأولم عليها ، فلما فرغوا من الطعام حتىٰ وافتهم

الروم ، ووقع القتال ، فاستشهد خالد ، وشدّت أم حكيم عليها ثيابها وتبدّت ، وإن عليها أثر الخلوق ، فاقتتلوا علىٰ النهر ، فقاتلت أم حكيم يومئذٍ ، فقتلت بعمود الفسطاط الذي أعرس بها خالد فيه سبعةً من الروم!!

وجاء في ترجمة (أم موسىٰ اللخمية) زوج نُصير اللخمي والد موسى بن نُصير الذي فتح الأندلس :

أنها شهدت مع زوجها اليرموك ، فقتلت حينئذٍ علجاً[1] وأخذت سلبه ، وكان عبد العزيز بن مروان يستحكيها ذلك فتصفه له وتقول :

بينما نحن في جماعة من النساء إذ جال الرجال جولةً ، فأبصرت علجاً يجرّ رجلاً من المسلمين ، فأخذت عمود الفسطاط ، ثم دنوت منه ، فشدخت به رأسه ، وأقبلت أسلبه ، فأعانني الرجال علىٰ أخذه[2]!!

وأما الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فينقل طائفة من قصص اشتراك الصحابيات في الحرب ، ومدىٰ شجاعتهن وجرأتهن ، من ذلك علىٰ سبيل المثال لا الحصر :

* أخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما كان يوم أُحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سُليم رضي الله عنهما وإنهما لمشمّرتان أرىٰ خدم سوقهما تنقزان

---

(١) أي : الرجل من كفار العجم [القاموس المحيط : ٢٥٤] .

(٢) يراجع الجزء الرابع من الإصابة في تمييز الصحابة ، ويروي ابن كثير : أن خولة بنت ثعلبة كانت تحرض المجاهدين في معركة اليرموك ، وتقول :

يـا هـاربـاً عـن نسـوة نقيـات فعَـن قليـل مـا تُـرىٰ سبيـات

ولا حصينـــــات ولا رضيَّـــــات

القِرَب ثم تُفرغانهما في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانهما في أفواه القوم .

* وأخرج أبو داود من طريق حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه رضي الله عنها : أنهنّ خرجن مع رسول الله ﷺ في خيبر ، وفيه أن النبي سألهنّ عن ذلك فقلن : خرجنا نغزل الشعر ، فنعين به في سبيل الله ، ونداوي الجرحىٰ ونناول السهام ، ونسقي السَّويق .

* وأخرج الطبراني عن مهاجر : أن أسماء بنت يزيد بن السّكن بنت عم معاذ بن جبل رضي الله عنهما قتلت يوم اليرموك تسعةً من الروم بعمود فسطاط[1] !!

إذن :

إذا كانت النساء قد خرجن مع رسول الله ﷺ في جميع الغزوات التي غزاها وإن كنَّ خرجن مع المسلمين في عهد الخلافة الراشد ، وفي عهد الأمويين و . . .

وإن كانت صحابية من الصحابيات قد دُفنت في قبرص وهي تقاتل مع المسلمين ، وإذا كانت كثيرات من المسلمات ساعدن في الحروب .

فهل نترك ذلك كله لنستمع إلىٰ إنسان تعلم كلمتين ، فراح يفتي للناس أن المرأة لا يجوز لها أن تخرج من بيتها لا إلىٰ المسجد ، ولا إلىٰ العمل ، ولا إلىٰ الغزو ، ولا إلىٰ الطريق ولا . . . !!!

إذن إلىٰ أين تخرج ؟!

قالوا : لا تخرج من بيتهاإلا مرتين : مرة إلىٰ بيت زوجها ، ومرة إلىٰ قبرها!!!

---

(١) يراجع الجزء الأول من حياة الصحابة .

هل ندع أحاديث الصحاح والسنن وتفسيرات القرآن الكريم وحياة الصحابة وكتب التاريخ والتراجم ، لنأخذ من هؤلاء ؟!

صحيح أن الشريعة وضعت ضوابط علىٰ النساء : كعدم الاختلاط إن خيفت الفتنة ، وكالستر ، وكاللباس الشرعي و . . . وهذا يكمِّل ذلك ، أما أن يحتجَّ أولئك علىٰ عدم خروج المرأة باللباس ، فهذا أمر لا دخل له أبداً ، فالإسلام يُؤخذ كله أو يترك كله ، ولا تبعيض في الشريعة ، وإلا دخلنا تحت قوله تعالىٰ :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٥] .

* * *

الفصل الثاني

نماذج نسائية في رحاب الفداء والتضحية!!

* ثم تعالوا لنرىٰ نماذج أخرىٰ من النساء ، وكيف كنَّ مثالاً في الشجاعة والفداء :

* تلكم هي **الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الشريد السُّلمي)** والتي ولدت عام (٥٧٥)م وعاشت في الجاهلية ، حيث مات أخويها (معاوية وصخر) ، فما كان منها إلا أن لبست السواد ، وأطلقت للسانها العنان ، فراحت ترثي أخويها حتىٰ أصبحت مثالاً في ذلك ، ها هي تقول :

يا عين ما لك لا تبكين تسكابا ... إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريّابا
فـابكـي أخـاك لا أيتـامٍ وأرملـةٍ ... وابكي أخاك إذا جاوزت أجنابا

ثم تقول ذات مرة :

إن الزمـان ومـا يفنىٰ لـه عجـبٌ ... أبقىٰ لنا ذَنَبا واستؤصلَ الرأسُ
أبقـىٰ لنـا كـلّ مجهـولٍ وفجّعنـا ... بـالحـالميـنَ فَهُـمْ هـامٌ وأرمـاسُ
إن الجديدين في طول اختلافهما ... لا يَفْسُـدانِ ولكـن يَفْسُـدُ النـاسُ

ثم تحدثنا عن أرقها وقلة نومها فتقول :

يـؤرقنـي التـذكّـر حيـن أمسـي ... فـأصبـحُ قـد بليـتُ بفـرطِ نُكْـسِ
علىٰ صخرٍ ، وأي فتىً كصخرٍ ... ليـوم كـريهـةٍ وطعـان حِلْـسِ

ثم تقول مخاطبةً عينها :

يا عين فيضي بدمعٍ منك مغزار ... وأبكي لصخرٍ بدمع منك مدرارِ
إني أرقت فبتُّ الليل ساهرةً ... كأنما كُحلت عيني بعوّارِ
أرعىٰ النجوم وما كُلّفتُ رعيتها ... وتارة أتغشّىٰ فضل أطمارِ[1]

ويشاء الله للخنساء الهداية ، فتعلن إسلامها عام (٢٠هـ = ٦٣٠م) ، فكيف أصبح حالها ؟ هل بقيت تبكي أخويها ؟ هل بقيت علىٰ عادة الجاهليين ؟

أبداً فالإسلام صنعها من جديد ، وحوّلها من ثكلىٰ إلىٰ بطلة شجاعة تربي أولادها علىٰ حب الشهادة في سبيل الله!

تحدثنا سيرتها العطرة : أنها حضرت معركة القادسية في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه ، ومعها بنوها الأربعة ، فقالت لهم قبيل بدء المعركة :

يا بني أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجلٍ واحد ، كما أنكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خنتُ أباكم ولا فضحتُ خالكم ، ولا هجّنْتُ حسبكم ، ولا غيّرت نسبكمُ ، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خيرٌ من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله تعالىٰ سالمين فاغدوا إلىٰ قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله علىٰ أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت

---

(١) متفرقات من ديوان الخنساء ، وحبذا لو يراجع بدقة ، لترىٰ كم رثت أخويها (صخر ، ومعاوية) . . . وكم بكت عليهما . . . !! .

عن ساقها ، واضطّرمت لظىً علىٰ سبّاقها ، وجلّلت ناراً علىٰ أرواقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، عند احتدام حميسها تظفروا بالمغنم والكرامة في دار الخلود والمقامة .

وبالفعل ، انطلق أبناؤها الأربعة نحو العدو ، فلما قارب الصبح أن ينبلج ، تمركزوا في مراكزهم ، فقال الأول مذكّراً إخوته :

يا إخوتي إن العجوز لناصحة ... قد نصحتنا إذ دَعَتْنا البارحة
بقالةٍ ذات بيانٍ واضحة ... فباكروا الحرب الضّروس الكالحة
وإنما تُلقُون عند الصائحة ... من آل ساسان كلاباً نابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة ... وأنتمو بين حياةٍ صالحة
وميتة تورث غُنماً رابحة

وانقضَّ علىٰ العدو ، فقاتل قتال الشجعان الأبطال ، حتىٰ سقط شهيداً!!

فحمل الراية من بعده أخوه الثاني ، وراح ينشد :

إن العجوز ذاتُ حزمٍ وجَلَدْ ... والنظر الأوفق والرأي السّدد
قد أمرتنا بالسّداد والرّشد ... نصيحةً منها وبراً بالولد
فباكروا لحربِ حُماةٍ في العدد ... إما بفوزٍ باردٍ علىٰ الكبد
أو ميتةٍ تورثكم عيش الأبد ... في جنة الفردوس والعيش الرغد

وانقضَّ علىٰ الأعداء ، وقاتل قتال الأبطال ، حتىٰ سقط شهيداً!!

فحمل الراية أخوه الثالث ، وراح ينشد :

والله لا نعصي العجوز حرفاً ... قد أمرتنا حَدَبا وعَطفا
نُصحاً وبراً صادقاً ولطفاً ... أو يكشفوكم عن حمامكم كشفا
إنا نرىٰ التقصير عنهم ضعفا ... والقتل فيهم نجدةً وعُرفا

وقاتل حتىٰ استشهد ، فحمل أخوه الرابع من بعده وقال :

لست لخنساء ولا للأخرم ولا لعمروٍ ذي السَّناء الأقدم
إن لم أرِدْ في الجيش جيش الأعجم ماضٍ علىٰ الهول خضمٌّ حضرم
إما لفوز عاجلٍ ومغنم أو لوفاةٍ في سبيل الأكرم

وقاتل حتىٰ استشهد رضي الله عنهم جميعاً .

فماذا كان موقف الخنساء ؟ هل لطمت الخدود ؟ هل شقَّت الجيوب ؟ هل نَعَتْ بنعوىٰ الجاهلية ؟

أبداً ، فقد حولها الإسلام من شيء إلىٰ شيء آخر ، لقد فرحت واستبشرت وقالت : الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم ـ أو باستشهادهم ـ وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[1] !!

أسماء بنت أبي بكر :

وأما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ، فقد شاركت في التنظيم السري الذي رُسِم عند هجرة المصطفىٰ ﷺ إلىٰ المدينة المنورة !!

وسمِّيت ذات النطاقين لأنها شقَّت نطاقها نصفين ، ربطت بأحدهما سفرة رسول الله ﷺ ، وبالآخر قربته !!

وذت يومٍ دخل عدو الله أبو جهل بيت والدها مع نفر من قريش ، فسألها عن أبيها ، فردت بكل ثبات : لا أدري أين هو ، فضربها أبو جهل حتىٰ سقط القرط من أذنها ، وهي لا تبالي بذلك ، ولم تعترف عن مكان والدها !!

---

(١) للتوسع عن حياتها يراجع : الاستيعاب ٤/١٨٢٧ ، وأعلام النساء : ١/٣٦٠ والأعلام : ٢/٦٩ .

وعندما كبرت تزوجها الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ فأنجبت منه عبد الله رضي الله عنه فربته علىٰ الشجاعة والتضحية والفداء ، وقد سجل لها التاريخ هذه اللقطة الرائعة ، والتي يجب أن تكون مثالاً يُحتذىٰ لجميع النساء والرجال :

أتاها ابنها عبد الله ذات يوم ، وقد اشتدت الحرب بينه وبين جيوش بني أمية ـ وكانت وقتها ضريرة كبيرة السن ـ فذكر لها خذلان الناس إياه ، وموت أصحابه ، وإغراء أعدائه للناس بالمال والجاه والدنيا .

فما كان من أسماء المرأة إلا أن قالت له : يا بني أنت والله أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك علىٰ حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها صبيان بني أمية ، وإن كنت تريد الدنيا فبئس العبد أنت!!

أهلكت نفسك وأهلكت مَن معك ، وإن كنت قلت : كنت علىٰ حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن .

فقال لها عبد الله : يا أم ، إني لأخشىٰ إذا قتلت أن يمثّلوا بي ، فقالت له : يا بني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها!!

عندئذٍ انطلق عبد الله نحو الجيوش المعادية ، فقاتل قتال الأبطال ، حتىٰ سقط شهيداً ، فرفعه الحجاج بن يوسف علىٰ خشبة الصلب وتركه علىٰ ذلك أياماً ، فلما مرت أسماء به قالت : أما آن لهذا الفارس أن يترجل!!

وفي عام (٧٣ هـ) انتقلت إلىٰ جوار ربها عن عمر بلغ المئة ، قضت معظمه في الجهاد والبذل والعطاء[1] .

---

(١) للتوسع عن حياتها يراجع : طبقات ابن سعد ٨/ ١٨٢ ، والإصابة : ٤/ ٢٢٤ ، =

خولة بنت الأزور :

كان لها الدور الكبير في مجابهة الروم ، وكان ذلك ضمن خطة سرية ، فهي لا تحب الشهرة والرياء ، إنما تريد أن تقاتل الأعداء لوجه الله تعالىٰ .

وقد سطر التاريخ ذلك قائلاً : كان قائد الجيش الإسلامي هو خالد بن الوليد رضي الله عنه فالتفت قبل المعركة فرأىٰ فارساً يرتدي الثياب السوداء ، وقد تلثّم حتىٰ لم يعد يرىٰ من وجهه إلا عيناه ، وقد وضع علىٰ رأسه عمامة خضراء ، ويركب فرسه لينقض علىٰ الرومان ، فتعجب خالد من شجاعة هذا الفارس ، فسأل من حوله : من هذا الفارس الشجاع ؟

فلم يعرفه أحد ، ودارت المعركة ، وحمي الوطيس ، فرفع رافع صوته : من يكون هذا الفارس غير خالد بن الوليد ، لكن خالد كان إلىٰ جنبه فقال : يا رافع والله إني لا أعلم من هو .

ثم نادىٰ خالد المسلمين إلىٰ الانقضاض علىٰ العدو ، والفارس هذا يجول ويصول ، فلحقه خالد إلىٰ أن أدركه ، فقال : يا هذا أناشدك الله من أنت ؟ لقد شغلت قلوب المسلمين وقلبي .

فقال الفارس : أنا خولة بنت الأزور ، علمت أن ضراراً ـ أخي ـ أسير ، فجئت أنتقم له وأفك أساره ، وأجاهد في سبيل الله .

وينقضي النهار ، ولم تجد خولة أخاها ضرار ، فبكت وقالت :

أبعد أخي تلذّ الغمض عيني ... وكيف ينام مقروح الجفون ؟
وإني إن يقال مضىٰ ضرار ... لباكيةً بمنسجم هتون

= والأعلام : ١/ ٢٨٩ .

وفي منتصف الليل ، رأت خولة بعض الجنود الرومان يقتربون من خيمتها ، فلبست سلاحها وخرجت إليهم ، فأسرت عدداً منهم وساقتهم إلىٰ خيمة خالد بن الوليد ، وسألهم خالد عن ضرار ، فقيل له :

إن ضراراً قتل ابن عاهلنا وقتل منا عدداً عظيماً ، فتكاثرنا عليه وأسرناه وبعثناه إلىٰ عاهلنا ليرىٰ فيه رأيه .

فاختار خالد مائة فارس علىٰ رأسهم رافع بن عميرة ، وأمرهم أن ينطلقوا وراء أولئك الذي اصطحبوا ضراراً نحو عاهل الروم ، فما كان من خولة إلا أن رجت خالداً أن يسمح لها بالذهاب مع الفرسان .

وبالفعل لما وصلوا إلىٰ (السلمية) قرب حماة في سورية ، نظر رافع فرآهم محيطين بضرار ، عندها كبَّرت خولة فدوىٰ الوادي ، وكبَّر معها المسلمون ، وانقضت علىٰ الأعداء ، وانقضّ معها الفرسان ، ففكوا أسر أخيها ضرار .

ثم ماذا ؟

اشتركت خولة في كثير من المعارك بين المسلمين والروم ، لكنها سقطت أسيرة في وقعة (صحورا) ، وكان معها في الأسر عدد من المسلمات ، فماذا سيفعلن ؟!

وقفت في النساء ، تخطب فقالت :

يا نساء المسلمين ، يا بنات تبعّ وحمير ، أترضين لأنفسكن علوج الروم ؟

أترضين أن يكون أولادكم عبيداً لهم يسومونهم الخسف والذل ؟ أين شجاعتكن ؟ أين إباء العرب ؟ أين كرامة الإسلام ؟ أين شجاعتكن التي تحدث بها أحياء العرب ومحاضر الحضَر ؟ إن الموت أهون عليكن من خدمة الروم!

فقامت عفراء بنت غفار الحميرية وقالت : صدقت والله يا ابنة الأزور ، لكن أين السلاح لنقاتل العدو ؟

وتشاور النسوة في الأمر ، فقالت خولة : يا بنات التابعة ، خذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ، ولنحمل بها علىٰ هؤلاء اللئام ، فإما الشهادة ، وإما النجاة ، والله ناصر من ينصره .

يا بنات التابعة ، لنخلص أنفسنا من العار قبل أن يحللنا أو يحالل إحدانا ، لنصدق في اللقاء ولنتكل علىٰ الله .

وحُددت ساعة الصفر لتنفذ الخطة ، وقادت خولة الأسيرات ، وحملت علىٰ عاتقها عموداً وصاحت بالنسوة : إياكن والضعف والفرار ، لنكن جميعاً ، ولا يفترق بعضنا عن بعض ، حتىٰ لا يقع علينا التشتيت ، واحطمن رماح القوم ، واكسرن سيوفهم ، وكبّرن في القتال واصبرن .

وسارت النسوة ، كل منهن تحمل عموداً ، فشدوا شدة واحدة ، وقاتلن قتالاً قوياً ، فما كان من الروم إلا أن ذهلوا ، فسقطت الأسلحة من أيديهم ، وأخذت خولة منها رمحاً ، وراحت تقاتل به ، حتىٰ خلصن أنفسهن من أسر الروم .

** وإذا تابعنا سرد الأحداث عن النساء اللائي شاركن في الحروب وأبدين الشجاعة والإقدام ، لرأينا ذلك أمراً يطول ويطول!

أنذكر أم الفضل ـ زوج العباس بن عبد المطلب ـ عندما قيل لها : إن ابنك فلاناً قُتل في البلدة الفلانية ، وابنك فلان مات في البلدة الفلانية .

فكان جوابها : لقد باعدت بينهم الهمم ، ولو كانوا ذوي همم منحطة لماتوا حيث ولدوا! ؟

أم نذكر مواقف السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، والتي ضحّت بمالها وشهرتها لتنصر الدين الإسلامي في اللحظات الأولىٰ ،

وليكون لها حقّ الشرف في أن تنال وسام : أول امرأة في الإسلام!!

أم نذكر مواقف السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وكيف صبرت وكيف ضحّت بكل شيء لتقام دولة الإسلام وليكون لها شرف نيل الوسام المحمدي : « أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟! » .

أم نذكر مواقف بركة ـ أم أيمن ـ رضي الله عنها ، تلك المرأة التي هاجرت إلىٰ الحبشة ، ثم إلىٰ المدينة ، واشتركت في الجهاد مع سيدنا رسول الله ﷺ في أُحد ، وخيبر ، وحنين! ؟

أم نذكر مواقف السيدة أسماء بنت عُميس ، والتي لازمت زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في جميع المواقف ، وهاجرت معه إلىٰ الحبشة أيضاً ، وصبرت صبراً لا تتحمله الجبال عند فراق زوجها الذي استشهد في مؤته ؟!

أم نذكر مواقف عمة رسول الله ﷺ (أروىٰ بنت عبد المطلب) وهي تدافع عن الإسلام : بلسانها ، وبمالها ، وبكل ما تملك! ؟

أم هل نذكر تلكم المرأة المسلمة التي كانت حاملاً بابنها عبد الله من أبي طلحة ، عندما نادىٰ المنادي بالخروج إلىٰ حنين ، فخرجت أم سليم بنت ملحان ، مع المسلمين إلىٰ القتال!!

وكانت قد اشتركت في معركة أحد ، تداوي الجرحىٰ ، وتسقي العطشىٰ ، ولا تخاف من نبال الأعداء وسهامهم ، إنما كانت تتمنىٰ لقاء العدو لتنال الشهادة في سبيل الله تعالىٰ . . . !!

أم هل نذكر تضحيات (أم سلمة) رضي الله عنها وما لاقته من صعوبات أثناء هجرتها من مكة إلىٰ المدينة المنورة ؟!

لقد سمح المشركون لزوجها بالهجرة ، ومنعوها من ذلك ، وأخذوا طفلها معهم!! زوجها أصبح بعد أيام في المدينة ، وابنها مع المشركين ،

وهي هي المرأة الوحيدة التي جلست علىٰ مشارف مكة تبكي وتبكي نحو عام كامل!!

لماذا ذلك كله ؟ ولماذا لم تعد إلىٰ أهلها و . . . ؟! إنها التضحيات في سبيل نصر الدعوة الإسلامية .

أم هل نذكر وقفة (درامية الحجونية) في وجه معاوية بن أبي سفيان وهي تمدح سيدنا علي بن أبي طالب ، ولم تخف من القتل والتعذيب ، بل قالت عنه : لقد أحببت علياً علىٰ عدله في الرعية ، وقسَمِه بالسويّة ، وأبغضك علىٰ قتال من هو أولىٰ منك بالأمر ، وطِلبَتِكَ ما ليسَ لك بالحق ، ووالیت علياً علىٰ حبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدِّين ، وعاديتك علىٰ سفك الدماء ، وجوْرِك في القضاء ، وحكمك بالهوىٰ!!

أم نذكر مواقف بطولية لنساءٍ مسلمات ، وقفن في وجه الظلم ، ورفعن شعار الحق ، ولم يخشين إلا الله تعالىٰ ، مثل سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمذانية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمذانية ، وبكارة الهلالية ، وعكرشة بنت الأطرش بن رواحة ، وأم سنان بنت حمشة بن خرشة المذجحية ، وأم الخير بنت الحرميش بنت سراقة البارقي ، ودرامية الحجونية . . .

أم هل نذكر نساء العرب الجاهليين في معركة أحد ، حيث وقفن وراء الجيش وراحت كل واحد منهن تحض أقرباءها علىٰ الثأر من هزيمتهم في بدر ، وكن ينشدن :

إن تقبلـــوا نعـــانـــق ونفـــــرش النمـــــارق!
أو تـــــدبـــــروا نفـــارق فـــــراق غيـــــر وامـــــق!

أم هل نذكر ملكة تدمر ، وما قامت به من أدوار عظيمة لحماية شعبها والذّود عن بلدها و . . . ! ؟

أم هل نذكر بلقيس ملكة سبأ ، ورجاحة عقلها ، ورصانة فكرها ، وحكمتها وثباتها لتخطي الصعاب و . . . ! ؟

هذه إشارات فقط ، ومن أراد المزيد فليراجع كتب التراجم والسير . فهي مليئة بذلك . . . ، وفيها الدليل الكافي الشافي للرد علىٰ شبهة عدم خروج النساء إلىٰ المعارك . . .[1] .

---

(١) وهل ننسىٰ تضحيات سمية ـ والدة عمار بن ياسر ـ رضي الله عنهُ وكيف نالت وسام أشرف وأول شهيدة في الإسلام! ؟

وهل ننسىٰ موقف (غزالة) زوجة شبيب بن زيد ، من الحجاج وقتالها له ، حتىٰ قيل فيه :

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلاَّ برزت إلىٰ (غزالة) في الوغىٰ ... بل كان قلبك في جناحي طائر ؟!